

شهادة حول الشهيد العربي بن مهيدي

أ. عبد الحميد مهري

بسم الله الرحمن الرحيم، سيداتي سادتي ما أتقدم به اليوم ليس محاضرة بالمعنى الأكاديمي. هذه المهمة نتركها لجيل الجامعيين والباحثين الذين يتناولون تاريخ الجزائر المجيد وتاريخ الثورة الجزائرية على وجه التحديد.

ما أتقدم به هو اليوم شهادة شخصية تضاف إلى الشهادات العديدة للإخوة والأخوات الذين عرفوا الأخ الشهيد محمد العربي بن مهيدي وعرفوا جيله وواكبوا مسيرته.

عرفت الأخ محمد العربي رحمه الله وعلى ما أذكر في أحد مخيمات الكشافة الإسلامية الجزائرية التي كانت تضم في ذلك الوقت عددا غير قليل من الشباب الجزائري. وكان آخر لقاء معه بالقاهرة بداية سنة 1956 وأعتقد أنه كان سفره الوحيد الذي قام به إلى مصر. لكنه كان آخر لقاء معه. وبين اللقاء الأول والأخير هناك عدة سيرات عديدة في الحركة الوطنية الجزائرية، حزب الشعب الجزائري، حركة انتصار الحريات الديمقراطية والمنظمة الخاصة لحزب الشعب الجزائري. والذي يهم من احتفالنا بذكرى استشهاد البطل محمد العربي بن مهيدي هو أن نلفت الانتباه من خلال سيرته إلى بعض الثوابت التي تساعد الأجيال المقبلة على مواصلة المسيرة.

ومن النقاط التي فضلت الإشارة إليها هي منبت الأخ العربي والتحدث عن المنبت لا يعني تخصيص الشخص ولكن النفاذ إلى

مفتاح من المفاتيح التي تسهل قراءة التاريخ الجزائري. فالمنبت، العائلة والأسرة التي كان ينتمي إليها الأخ محمد العربي كانت متصلة بالمقاومة التي قام بها الشعب الجزائري منذ أن وطئت أقدام الجيش الفرنسي هذه الأرض. عرفت عن قرب بعض أفراد أسرة العربي بن مهيدي الذي كان بواد الزناتي.

شخصية الشيخ عيسى بن مهيدي كانت شخصية وسطا بين العصور التي تعاقبت في المقاومة الجزائرية.

كان قاضيا خريج مدرسة قسنطينة ولكنه من الجيل الذي كان يتقن اللغة العربية وعلوم الدين مع القليل من اللغة الفرنسية وهو الجيل الذي شهد على تحويل المدرسة من المدارس المزدوجة بالتدريج إلى أن غلبت اللغة الفرنسية على اللغة العربية. كان رحمه الله لا يتقن اللغة الفرنسية إلا قليلا. كان قوي الشخصية. لأن الحادثة التي تبرز هذا المعنى وقعت له في واد الزناتي عندما كان أحد أبنائه عرضة لهجوم من طرف كلب كان ملكا للقسيس الذي كان يشرف على الكنيسة، فما كان على الشيخ عيسى بن مهيدي إلا الخروج بعصاه وضرب القسيس. كانت حادثة كبيرة ضج لها الفرنسيون ولكنهم كمدوا غيظهم. بعد أشهر افتعلوا سببا أدى إلى عزل الشيخ عيسى بن مهيدي من منصبه بادعائهم أنه استعمل طابع بريدي مستعمل في رسالة وقام بتدليس طابع البريد، فحكمت المحكمة بعزله.

كان بين الشيخ عيسى بن مهدي ومنبت العربي زيارات عائلية عديدة. أجد في بعض الأحيان ردود الشيخ عيسى بن مهدي متجسدة في ردود أفعال العربي بن مهدي وهي رفض الظلم والاعتداء والاستكانة أمام طاغوت الاستعمار الفرنسي. فعملنا كان تكملة للمقاومة التي قام بها الشعب الجزائري.

كان الأخ العربي بن مهدي متشعبا بروح المقاومة، حريصا على توريث هذه المقاومة للأجيال التي تقوم بها. ومما نعرفه عنه ونتناظر بما يقوله هو إيمانه المطلق في تكوين المناضلين بصفة خاصة.

كنا عندما نقول له يا حكيم القرية أو الجهة الفلانية ينقصها المناضلون. فيقول لنا من هو المناضل؟ المناضل نصنعه وأشار بيديه إلى كيفية صنعه وكأنه يصنع تمثالا ويقول إن المناضل عبارة عن صنع مناضل آخر الذي يعطي المدد. وكان له هاجس طيلة حياته النضالية وهو تكوين الأجيال التي تقوم بواجب المقاومة وواجب النضال. كل حياته النضالية تجسدت في هذا السلوك وهو ما جعله يختار ليكون أحد قادة المنظمة الخاصة، وهو ما طبع سلوكه في هذه المنظمة. لكن خلال هذه المسيرة تأثر بحادثة تبسة التي كانت سببا في اكتشاف المنظمة الخاصة.

كان الأخ محمد العربي بن مهدي مسؤولا عن إدارة هذه القضية واجتاز على إثرها محنة شخصية لأن فشلها أثر عليه. لكن

المهم سلوكه الذي لم يتغير ونظرة إخوانه له في المنظمة الخاصة والمسؤولين السياسيين الذين عزلوه في فترة من الفترات لم تتغير أيضا، لكنها كانت تشبه مع الفارق في التشابه خالد بن الوليد عندما عزل إشفافا على أرواح المسلمين. كان المأخذ الأساسي للأخ محمد العربي بن مهيدي انه يقتحم الصعاب والمعارك بدون أي تردد. بقي في هذه الفترة على اتصال بقيادة المنظمة الخاصة وكان المطلب الذي قام به كل من بقي خارج السجن من قادة هذه المنظمة هو إعادة تشكيلها على أسس أخرى. وهو ما بادرت به مجموعة من الإخوان قادة هذه المنظمة ابتداء من سنة 1952. وقد ذكرت تفاصيل ما عشته في هذه الفترة في المقدمة التي كتبتها في كتاب الأخ سي عيسى كشيدة، وكيف أن هذه المجموعة من الإخوان: محمد بوضياف، ديدوش مراد، مصطفى بن بولعيد، ومحمد العربي بن مهيدي قاموا بإعادة تشكيل المنظمة الخاصة بدون إذن من الإدارة السياسية لحزب الشعب الجزائري. استمر العمل إلى أن كان تأسيس اللجنة الثورية للوحدة والعمل ثم اجتماع ال 22 أو ال 21 حسب الروايات الذي أعطى الإشارة النهائية لاندلاع الكفاح المسلح. ما تتميز به شخصية العربي بن مهيدي هو إيمانه بالشعب الجزائري وبقدرته على خوض المعركة ضد الاستعمار وليس من السهل أيها الإخوان الإيمان بالشعب ولا الثقة به. هي كلمة نردها ولكن عندما تصدر من مناضل في صميم المعركة وأمام الجيش

الفرنسي بكل العتاد والقوة فإن وزنها ثقيل. الثقة بالشعب الجزائري في عز المعركة المسلحة لا تصدر إلا عن مناضل يعرف هذا الشعب معرفة حقيقية وعميقة وهو ما يعطي لهذه الكلمة أبعادا كبيرة.

كثير ما أسأل من طرف بعض الشباب عن سر نجاح الثورة، وأجدهم يفكرون بأن الثورة كان فيها جيل عبقري موهوب بهذه الثورة سنة 1954 في شيء من الحسرة أن هذا الجيل انقرض وليس هناك أمل في أن ترى الجزائر مثل هذا الجيل.

أعتقد أن هذا تفسير سطحي للشعب الذي أبرز المناضلين الذي قاموا بثورة أول نوفمبر أو الشعب الودود الذي يستطيع عندما يحين المر أن ينجب أجيالا أخرى قادرة على أخذ زمام المبادرة وقادرة على مواصلة الكفاح في سبيل تحقيق أهداف الثورة. مهما عرفت الجزائر من مشاكل فإن الشعب الجزائري ودود وقادر على مواصلة المسيرة إذا كانت هناك حقيقة ثقة عميقة بهذا الشعب. بالطبع إذا كنا نعطي لهذا الشعب الثقة في عز المعركة المسلحة فمن باب الأولى والأحرى أن نترصد أو نعطي هذه الثقة عندما يتعلق الأمر بالعمل السياسي، الانتخابات في ما يتعلق بالإعلام، بالحرريات الفردية والجماعية، يجب أن نعطي لهذا الشعب الثقة الكاملة وأن نسير معه.

الأخ العربي كان أيضا مناضلا يعيش حياة بسيطة متواضعة مقداما وحريصا على تجسيد هذه المعاني في كل المسؤوليات التي تقلدها. كان في الفترة التي عاشها متخفيا بعد اكتشاف المنظمة الخاصة موجودا بالجزائر وعندما كنا نسير كان يرى جماهير الشباب الأوروبي يتجولون في الشوارع التي تسمى الآن العربي بن مهيدي وديدوش مراد ، كان يقول لي كلما رأيت هؤلاء الشباب منغمسين في الحياة الوديعه والمترفة وفي الملاهي يزيد إيماني بأن جيلنا هو الذي سينتصر. كنا عندما نمر بشارع العربي بن مهيدي كما يسمى حاليا يقول لي دعني أذهب إلى خالي وأفزعه. كان خاله طبيبا وعقيدا ، فهو متخرج من الجيش الفرنسي وأحد المناضلين في الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري. كان يفاجئه كلما يقوم بزيارة خاطفة لخاله الذي كان يغطي أيضا على نشاطه.

ثم جاءت بعض المواقف التي عرفتھا الثورة في اندلاع الكفاح المسلح وكان على الإخوة الذين أخذوا هذه المسؤولية أن يتغلبوا على عدة عراقيل وقناعات قديمة أهمها بالنسبة لجيل المناضلين الذين فجروا الثورة وكانوا كلهم من حزب الشعب الجزائري. قرروا الخروج من الدائرة الضيقة لحزب الشعب الجزائري إلى دائرة أوسع والنداء إلى جميع الجزائريين مهما كانت انتماءاتهم للانخراط في الثورة. وهنا أعتقد أن الطريقة لإدراك الدرس التاريخي في المقاومة

الجزائرية منذ دخول الجيش الفرنسي هو أنها لم تنجح لأنها كانت مجزأة وجزئية وأن المشروع الذي ينجح هو المشروع الذي يقوم بثورة وطنية ويجمع كل الجزائريين على صعيد الكفاح. لم يكن من السهل بالنسبة لهؤلاء المناضلين الذين تربوا على إطار انضباطي شديد أن يقرروا هذا وأن يخرجوا من الدائرة الضيقة ويكتفون بالزاد الفكري والإرادة السياسية من كل تجاربهم.

وكان موقفهم من مؤتمر الصومام واضحا. هناك اختلافات ورؤى مختلفة للمؤتمر ولكن اعتقادي أن محمد العربي بن مهيدي هو الذي زكى المؤتمر. كان ينطلق من هذه المعاني وكان بطبيعة الحال لا يرى في مقرر الصومام شيئا يتعارض مع قناعاته واتجاهه العربي الإسلامي.

أقول هذا لأن النقاش حول أحداث الثورة مفتوح اليوم ومن الضروري أن نسلط عليه رؤى ناقدة لكن اعتقادي أن هذا يفرض علينا شيئا من التقيد بالحقيقة التاريخية. والأخ العربي قام بجهد كبير في نجاح مؤتمر الصومام وأعطى للثورة بعدا أكبرا في جمع الجزائريين على صعيد الكفاح.

رحم الله الأخ العربي بن مهيدي وهدانا للارتفاع بمثله في التضحية من أجل الجزائر.